مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

قراءة في كتاب
"الرشد الاجتماعي رؤية قرآنية"

د.عبد الخالق كاظم إبراهيم

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

مقدمة

يتضمن كتاب "الرشد الاجتماعي رؤية قرآنية" لمؤلفه الشيخ حسن الصفار مجموعة من الدروس المستقاة من آيات القرآن الكريم ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية من أجل ترشيدها والارتقاء بها إلى مستوى النضج والرشد. وهو بذلك يسعى إلى توسيع دائرة الثقافة القرآنية لجميع أفراد المجتمع. ويعالج الكاتب مجموعة من المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي، ويضع الحلول المناسبة من خلال دعوته للعودة الحقيقية إلى المنهج القرآني وتعاليمه الإلهية؛ وذلك عبر التدبر الحقيقي في الآيات القرآنية، لا سيما تلك التي تتصل بمشاكل العالم المعاصر، ومنها مسألة التعايش السلمي ونبذ التشدد والتطرف عبر قاعدة التعارف القرآنية، وكذلك ضرورة حرية الرأي والنقد الاجتماعي وطرح الآراء الإصلاحية. بالإضافة إلى تطرقه لمجموعة من المواضيع الأخلاقية وضرورة التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن مساوئها، وتجنب الصراعات والبغي والاعتداء، وصولاً إلى المجتمع الرشيد الذي يتحلى بالرشد الاجتماعي القرآني. ولذلك يؤكد أن القرآن الكريم ليس كتاباً أكاديمياً تخصصياً تقتصر الاستفادة منه على العلماء والمتخصصين، بل هو كتاب أنزله الله للناس. لذلك ينبغي على كل إنسان أن يستقبل هذا الخطاب الإلهي باعتباره موجهاً إليه، ويتعامل معه على هذا الأساس، فيجتهد في فهمه، ويهتدي به في حياته وسلوكه.

ويقف الكاتب متأسفاً على حال المسلمين الذين يغفلون عن هذه الحقيقة، ويكتفون بقراءة القرآن الكريم للتعبد والبركة، ويَكِلون فهمه إلى العلماء والمتخصصين. مع أن القرآن الكريم يدعو الجميع للتأمل والتدبر في آياته. ويستدرك بأن كل إنسان يمكنه أن يستفيد من القرآن بقدر استعداده وإدراكه، وكلما كان أكثر استعداداً وكفاءة، كان أكثر استفادة وتحصيلاً.ويؤكد أنَّ آيات القرآن تخاطب فطرة الإنسان، وتستثير عقله، وتعالج ما يعرض على نفسه من حالات وتقلبات، وتقوِّم ما يصدر عنه من ممارسات وتصرفات،

ليختار طريقه، ويتخذ قراره، ببصيرة ووعي، لا سيما وأن أهم تحدٍّ يواجهه الإنسان هو تحدي التعامل مع أبناء جنسه، والعلاقة مع محيطه الاجتماعي، لذلك اتّسع نطاق الآيات القرآنية المهتمة بمعالجة هذا البعد في حياة الإنسان.

يعتمد الباحث في عنوان الكتاب المصطلح القرآني الذي تكرر عدة مرات في آيات كثيرة، وهو مصطلح (الرشد)، ويبدو أن المقصود بالرشد في منطق القرآن، ما يقابل الغيّ، فهو بمعنى الهدى في مقابل الضلال والانحراف، وهي مقابلة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ (سورة الأعراف الآية 146). وقد جاء الحديث عن الرشد في القرآن تسع عشر مرة، وفي بعضها جاء بضم الراء وسكون الشين ﴿رُشْد﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾ (سورة البقرة الآية 256)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ (سورة النساء الآية 6)، وجاء في موارد أخرى بفتح الراء وفتح الشين ﴿رَشَدا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف الآية 10)، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (سورة الجن الآية 14) وهما مترادفان.

وسوف تكون وقفاتنا مع أبرز محطات الكتاب الذي تضمن معالجة لأهم القضايا الاجتماعية التي تواجه المجتمع الإسلامي المعاصر، إذ تناول مجموعة من المواضيع المرتبطة بالحياة الاجتماعية وحاول أن يسلط الضوء عليها ويضع الحلول المناسبة لها في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، باعتبار أن تلك المشاكل تمثل أهم العوائق التي تقف بوجه تقدم وتطور المجتمعات الإسلامية.

فصول الكتاب

جاء الكتاب في أربعة فصول: حمل الفصل الأول عنواناً بدأ بالاستفهام الإنكاري: (أفلا يتدبرون القرآن)، وكانت أهم وقفاته حول: القرآن المهجور، القرآن شفاء، القرآن موعظة، الشباب والعودة إلى القرآن. أما الفصل الثاني فتناول مبادئ التعايش الإنساني في أهم تجلياته القرآنية في الخطاب الإلهي للبشرية (لتعارفوا) إلى الرؤية القرآنية في التعامل مع الآخر ودورها في تحصين وعي الأمة من التأثر بثقافة التشدد والتطرف. في حين كان الفصل الثالث حول ثقافة الرشد الاجتماعي التي تتضمن حرية الرأي ودورها في تقدم المجتمع، وأهمية النقد الاجتماعي وطرح الآراء الإصلاحية. أما الفصل الأخير فتناول مجموعة من المواضيع الأخلاقية منها: حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية، وأهمية التودد إلى الناس، وضرورة الابتعاد عن اللمز والتنابز والغيبة والسخرية والتجسس. وكذلك تناول الصراعات الداخلية ودوافعها وكيفية مواجهتها وفق الضوابط والحدود، وضرورة عدم اتخاذ موقف المتفرج في الصراعات التي تحصل في الساحة الإسلامية من خلال الدعوة إلى الصلح، وإدانة البغي ومواجهة الاعتداء. يبين المؤلف في بداية الفصل الأول معنى التدبر، وتدبر الأمر: تأمّله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه. والتدبر: التفهم في دبر الأمر، أي ما يخفى منه، وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه.

وبعدها ينتقل الكاتب مبيناً مفهوم القراءة السطحية للقرآن الكريم في الواقع الإسلامي، مشيراً إلى أن المسلمين يقرؤون القرآن ويعظمونه، لكن المؤسف أنها قراءة سطحية قشرية ظاهرية، لا ننفذ من خلالها إلى معاني القرآن ومضامينه، ويصل إلى نتيجة مفادها أن حياة المسلمين في غالبهم تصطدم اصطداماً مع آيات القرآن، لأنهم يقرؤون القرآن من دون تفاعل مع توجيهاته، التي تتطلب في أول مرحلة من مراحلها التفاعل

من خلال فهم معنى الآية وتدبرها، لغرض الوصول إلى النتيجة والهدف، ويؤكد حقيقة مفادها أن عامة الناس لا يكلفون أنفسهم جهداً من أجل أن يفهموا معاني الآيات، فالقرآن الكريم يقرأ في الفواتح، في الصالة، في المناسبات.. ولكن لا يكاد يكون هناك تأثير لهذه القراءة على واقع حياة هؤلاء القارئين، ويعلل ذلك بأنهم يقرؤون ولا يفهمون، أشبه شيء بإنسان يقرأ كلمات من لغة أخرى تعبداً، كما يقرؤه غير العربي للتعبد وإن كان لا يعرف معناه.

هل نستطيع فهم آيات القرآن؟

يشير الكاتب إلى الثقافة التي كرست هذه الحالة، وهي القول بأن الإنسان العادي لا يستطيع أن يفهم معاني القرآن، والعلماء والمفسرون هم فقط من يعلم معانيه، هذه الثقافة هي التي باعدت بين الناس وبين التدبر في القرآن الكريم، وهي ثقافة خاطئة، فالقرآن الكريم يدعو الناس ـ كل الناس ـ إلى تدبره والتأمل فيه، فإنما أنزل القرآن لا لتقرأ آياته، ويتبرك بها فقط، وإنما ليدَّبروا، وليفهموا معاني هذه الآيات، وخلفيات هذه الكلمات.

التدبر مطلوب من الجميع

وفي ضوء ذلك يؤكد ضرورة التدبر في آيات القرآن الكريم، فالآية الشريفة ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ في الوقت الذي تأمرنا بالتدبر في كتاب الله لم تحدد فئة المتدبرين، معلنة بذلك أن القرآن شرعة لجميع البشر، والواجب عليهم ـ جميعهم ـ أن يتدبروا فيه ويستخرجوا كنوزه، ويستظلوا بظله. ولو رجعنا إلى واقعنا العملي اليوم لوجدنا حظنا من تدبر القرآن ضئيلاً جداً، بقدر ضآلة حظنا من الحضارة، وهذا من سنن الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: 96).

ولو قارنّا أوضاعنا بأوضاع الأمم الأخرى، لوجدنا أنفسنا في جوانب كثيرة مسلمين بلا إسلام، بينما يتمتع غيرنا بتطبيق كثير من السنن التي أكدها الإسلام، ويعيش غيرنا حالة الإسلام ولا مسلمين، ذلك لأننا نجد عندهم روح التدبر والتأمل في كل شأن من شؤون الحياة، يتأملون في الذرة كما يتأملون في المجرة، ويكتشفون السنن الكونية التي أمرنا القرآن بالتدبر فيها، ويطبقون السلوك القرآني الذي نادى به القرآن، من التنظيم والاحترام وتحمل المسؤوليات، وهذا ليس مدحاً فيهم على إطلاقه، وإنما نحتاج لأن ننظر إلى العالم نظرة واقعية، لنأخذ الجيد ونترك الخبيث كما يأمرنا القرآن الحكيم. وهذا يتطلب الاقتراب من آيات القرآن الكريم، وأن تكون لدينا ثقة بأنفسنا بأننا قادرون على تفهم آيات القرآن، وأن نطبقها على أرض الواقع، والله يحثنا على ذلك ويعيننا عليه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر، الآية: 17).

القرآن المهجور

الهجر في اللغة: هو ترك ما من شأنه أن يوصل. فأي جهة كان ينبغي أن تكون على صلة معها ثم تتركها يقال لك هجرتها، ولا يقال لمن لم تعرفه أنك هجرته. وفي هذه الآية يشكو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الله تعالى من هجر قومه للقرآن العظيم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وإنما قال سبحانه ﴿اتخذوا﴾ ولم يقل ﴿هجروا﴾ ليدلل على أن الهجر صار ديدنهم ومنهجهم وطريقتهم في التعاطي مع القرآن العظيم.

وهجر القرآن يقابله الاهتمام به، ويمكن ملاحظة الأمر في اتجاهين: هجر التلاوة والحفظ، والهجر المعنوي. لذلك يشير الكاتب إلى العقيدة الإسلامية في كون القرآن الكريم

رسالة من الله إلينا وإلى الناس أجمعين، متسائلاً: كيف يصح لنا إهمال هذه الرسالة التي تفضل علينا بإرسالها خالقنا ورازقنا، ومن بيده حياتنا وموتنا؟!

ويوضح أن للقرآن الكريم جانبين: جانب الشكل ويتمثل في ألفاظ وكلمات آياته المجموعة بين دفتي المصحف الشريف، وجانب المضمون ويتمثل في القيم والمناهج والتشريعات التي تحملها آيات القرآن الكريم. وإذا كانت العناية بالجانب الأول أمراً مطلوباً، من حيث القراءة والحفظ والتلاوة والتفسير والنشر، إلا أنه لا يصح الاكتفاء بذلك عن مرحلة الاستجابة لمضامين القرآن، بالتزام القيم التي يبشر بها، وتفعيل المناهج التي يدعو إليها، وتطبيق التشريعات الإلهية التي يطرحها؛ لأن قيمة القراءة والحفظ لآيات القرآن إنما تأتي من قصد الاهتداء بها، وتجسيد معانيها في واقع الحياة. وإذا تجردت من جانب الالتزام العملي التطبيقي، فإنها تستلزم سخط الله تعالى وغضبه، وهذا ما تصرح به آيات القرآن، ونصوص الأحاديث والروايات.

ويؤكد أن القرآن الكريم يحمل للبشرية أفضل مشروع للتقدم والسعادة، والأمة التي تتبنى هذا القرآن وتحمله، يجب أن تقدم بواقعها العملي نموذجاً مثالياً يستقطب سائر الأمم، ويجتذبها نحو منهج القرآن. وفي إطار بيانه سبب حالة التخلف والشقاء، يبدي أسفه للمسافة الكبيرة الفاصلة بين واقع الأمة وبين هدي القرآن العظيم، وعدم الاستفادة من نوره، وأشعته الهادية. مبيناً أن القرآن ليس مجرد نص أدبي يستمتع الإنسان بقراءته، أو معلم تراثي، يحن للاطلاع عليه، أو مجموعة من الأوراد والأذكار الروحية للتبرك، إنه فوق ذلك كله رسالة هداية، وبرنامج حياة، إنه دستور عمل، ومشروع بناء وإصلاح.

والاهتمام المطلوب من قبل الأمة بالقرآن الكريم: هو تحكيمه في شؤون الحياة، والاستجابة لدعوته، وتطبيق مناهجه وتشريعاته في مختلف المجالات، أما إذا أعرضت

الامة عن مناهج القرآن، وغابت قيمه عن أجواء حياتها، واستبدلت بأحكامه قوانين أخرى، فإن ذلك هو مصداق اتخاذ القرآن مهجوراً، ولا يشفع للأمة حينئذ أمام الله تعالى اهتمامها الشكلي الظاهري بالقرآن. كما لا تستفيد الأمة من عطاء القرآن الحقيقي، إذا لم تأخذ بهديه عملياً، ولم تجعل آياته في مورد التنفيذ والتطبيق. ولو تأملنا واقع الامة اليوم، ودرسناه على ضوء القيم والمعايير التي نادى بها القرآن الكريم، لوجدنا عمق الهوة الفاصلة، والبون الشاسع بينهما.

لذلك فإن المطلوب هو النظر في كتاب الكون: ومن أوائل المفارقات التي تصدم المتأمل بين واقع الأمة ودعوة القرآن، التعامل مع الكون والطبيعة، حيث يركز القرآن الكريم على الدعوة إلى النظر في كتاب الكون، واستكشاف أسراره، ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم حركته. وإن عدداً من سوره تحمل أسماء لظواهر طبيعية، ولموجودات كونية، وفي ذلك إشارة واضحة للاهتمام بقضايا الطبيعة والكون. وهذا التوجيه المكثف يستهدف تركيز الإيمان بتوحيد الخالق وعظمته أولاً، وانطلاق الإنسان نحو عمارة الأرض، واستثمار خيرات الكون ثانياً. ويتساءل الكاتب عن المفارقة الكبيرة بين دعوة القرآن، وواقع المسلمين منها؟! وما مدى توجههم لعلوم الطبيعة والكون؟! وما مستوى إنجازاتهم العلمية والعملية؟! فأمم الأرض تتسابق نحو المعرفة والعلم، وتحقق المزيد من الاكتشافات والاختراعات، وتنجز الكثير من التقدم العلمي والتكنولوجي، بينما تراوح أمة القرآن مكانها على هامش حركة الحضارة والعلم؟! هذه الامة التي يبدأ قرآنها بالدعوة إلى المعرفة (اقرأ) وتركز أكثر آياته على النظر في كتاب الكون، إلا أنها تعيش في أوحال الجهل والتخلف، وتصنّف ضمن قائمة الدول النامية، والعالم الثالث؟!

ولغرض أن يوضح تلك الحقيقة يشير المؤلف إلى الإحصاءات والأرقام التي تتحدث عن مستوى البحث العلمي في العالم العربي والإسلامي، قياساً إلى واقع العلم والتقدم لدى

الأمم الأخرى، لتكشف عن تخلف عميق. إذ تشير بعض الإحصاءات إلى أن القوى البشرية التي تعمل في البحث العلمي في الوطن العربي 136 باحثاً لكل مليون شخص، بينما يبلغ العدد في اليابان 5 آلاف باحث، والولايات المتحدة 4374 باحثاً، وروسيا 3425 والاتحاد الأوروبي 2439 باحثاً لكل مليون شخص. وفيما يتعلق بالإنتاج والنشر العلمي، أفادت بعض الدراسات بأن نصيب بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ 35% من البحوث العلمية المنشورة عالمياً، في حين لا يتعدى نصيب الدول العربية مجتمعة أقل من 1% من هذا النشر الدولي العلمي. ويوجد في الدول العربية مجتمعة 580 مركزاً تمثل ما نسبته 7.49 % من إجمالي المراكز في العالم التي يبلغ عددها 8162 مركزاً، بل خلت قائمة الدول الخمسة والعشرين التي لديها أكبر عدد من المراكز من الدول العربية في حين حلت إسرائيل في المرتبة الـ 19 على هذه القائمة.

ومن حيث المخصصات المالية للبحث العلمي، بلغت المخصصات العربية في مجملها 1.7 مليار دولار أي ما نسبته 0.3 % من الناتج المحلي الإجمالي، فيما تنفق (إسرائيل) على البحث العلمي ما نسبته 4.7 % من ناتجها الإجمالي، وتنفق السويد ما نسبته 3.3 % وتنفق سويسرا واليابان ما نسبته 2.7% من الناتج المحلي الإجمالي.

ويُعزى سبب ذلك إلى هجر المسلمين للقرآن من خلال التغني بأمجاد الماضي، وبالسجالات والخلافات المذهبية، وبالاتهامات القشرية، غير مكترثين بنداءات القرآن الصارخة، ودعواته المكثفة، نحو التوجه لعلوم الطبيعة والحياة، مع أنهم يسمعون تلك الآيات في مختلف المجالس والمناسبات.

كما يعرض المؤلف إلى أنظمة العلاقات الاجتماعية بين الناس ووجوب تنظيمها على أساس العدل والإحسان في ضوء الرؤية القرآنية والرسالات السماوية، لذلك ركزت آيات القرآن الكريم على هذا الجانب، وأكدت على مبادئ أساس، يجب أن يلتزم بها الإنسان

في علاقاته مع أخيه الإنسان، كأفراد ومجتمعات، وهي مبادئ تنطلق من الإقرار بوحدة النوع البشري، وتساوي أفراده في القيمة والاعتبار، وتمتعهم بالكرامة الإنسانية، واحترام حرية الإنسان، وحفظ حقوقه المعنوية والمادية. لأن سلامة العلاقات بين أفراد المجتمع، وبين شرائحه وقواه المختلفة، ثم بين المجتمع وسائر المجتمعات، ضمن الأسرة الإنسانية، يشكل هدفاً أساساً، ومقصداً رئيساً لآيات القرآن وشرائع الدين.

ويتساءل الكاتب عن السبب الذي جعل الأمة تعيش في كثير من بلدانها حالات التفرقة والاضطراب الداخلي؟ بينما يتعايش الأوروبيون بلغاتهم المختلفة، وقومياتهم المتعددة، ومذاهبهم المتباينة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية المتنافسة، وهم الآن يوثقون عرى وحدتهم عبر إطار الاتحاد الأوروبي، الذي يتكامل يوماً بعد آخر، ووصل عدد الدول فيه إلى ثمان وعشرين دولة أوروبية. ويعود السبب إلى الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة في مجال اضطراب علاقاتها الداخلية، نتيجة تجاهلها وإهمالها للمبادئ العظيمة التي أرساها القرآن في تنظيم العلاقات الاجتماعية.

القرآن شفاء

وصف القرآن نفسه بأنه شفاء لما في الصدور، وهذا ينبئ عن افتراض إصابة نفوس أبناء البشر بالأمراض، كما الجسم يصاب بالمرض. فمرض الجسم يعني وجود خلل في جهاز أو عضو من أعضائه يمنعه من أداء دوره بشكل طبيعي، وينتج عن ذلك مضاعفات وآلام وتعويق، ومثل هذا تصاب به النفس، فالنفس هي: مجموعة المشاعر والعواطف والغرائز الموجودة عند الإنسان، وطريقة تعامله معها، وإشباعه لها، فكل غريزة من غرائز الإنسان، وكل عاطفة من عواطفه، وكل جانب من جوانبه، يؤدي دوراً مهماً في تكوين نفسيته، وما انتظام حياة الإنسان إلا بانتظام هذه الغرائز، وأداء كل واحدة دورها الطبيعي الذي خلقت من أجله.

والقرآن موعظة

ومن خلال تتبعه لموارد لفظ الموعظة في القرآن الكريم، يلاحظ أنها استعملت في مخاطبة وجدان الإنسان وأحاسيسه ومشاعره. والخطابات التي توجه للإنسان عادة ثلاثة أنواع:

- خطاب للعقل، وهو الكلام العلمي المنطقي.
- وخطاب للغرائز والشهوات، لإثارتها كما في الأغاني الهابطة والأفلام الخليعة.
- وخطاب للوجدان والأحاسيس الخيرة، وهذه هي الموعظة.

الشباب والعودة إلى القرآن

يؤكد الكاتب حقيقة كون العودة إلى القرآن هو خلاص البشرية من البؤس والشقاء الذي تعانيه، رغم تقدمها المادي التكنولوجي الهائل. والعودة إلى القرآن هو سبيل الأمة الإسلامية للعزة والكرامة، وتجاوز حالة التخلف الحضاري الشامل. وحينما هبطت آيات الذكر الحكيم لأول مرة على نبينا الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن قلوب الشباب هي التي احتضنت القرآن، وألسنتهم هي التي أوصلته إلى المسامع، وسواعدهم خاضت معارك الجهاد لتثبيت منهج القرآن في الحياة. أما لماذا كان الشباب هم جيل الاستجابة للقرآن أكثر من غيرهم؟ فذلك للأسباب التالية:

1- إنهم كانوا في مرحلة تفتح الفكر، وتشكيل الوعي، ووجدوا أمامهم أسئلة الحياة، وسبب الوجود، وغاية الخلق، ورأوا في القرآن الكريم الهدي والهداية إلى الإجابات الشافية المقنعة، التي تنسجم مع الفطرة وتتوافق مع المنطق وبديهيات العقل.

2- وكشباب مرهفي المشاعر والأحاسيس، كانوا يتحسسون مساوئ الواقع الجاهلي

المعيش، من عبادة أصنام، وفساد أخلاق، ونشوب حروب وفتن، لكنهم لا يعرفون طريقاً للخلاص والعلاج، وجاءت آيات القرآن الحكيم، لتمنحهم البصيرة والنور، ولتضع أقدامهم على طريق النجاح والسلام، فاستقبلوها بإخلاص واندفاع.

3- كانت قلوبهم أنقى وأصفى من الآخرين، ولم تتمكن المصالح من نفوسهم، ولم تسيطر السلبيات على

أذهانهم، ولم تتكرس المساوئ والمفاسد في سلوكياتهم، فانشدادهم للواقع الفاسد كان محدوداً، مما جعلهم أكثر قدرة على التحرر منه، والإفلات من هيمنته، والانطلاق نحو أفق جديد.

4- ومرحلة الشباب تخلق عند الإنسان ثقة بالذات، ورغبة في المغامرة، وتطلعاً لمستقبل أفضل، وذلك ما يتناغم مع هدي آيات القرآن الحكيم، ويخلق الأرضية المناسبة للتفاعل معها.

5- وتوجُّه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم وإقباله عليهم، وما كان يفيضه عليهم من حب وحنان، ويبديه لهم من تقدير واحترام، في مجتمع كان السن والمال فيه مناط المكانة والزعامة، كل ذلك جذبهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، واستقطبهم إلى رسالة الله تعالى، وهو الذي صنع شخصياتهم القيادية، وفجر مواهبهم وكفاءاتهم وطموحهم نحو العزة والتقدم.

أما الفصل الثاني فتناول (مبادئ التعايش الإنساني)

وقد أشار فيه إلى الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية في هذا العصر، من خلال الأزمة الحادة في العلاقة مع الآخر المختلف دينياً، بسبب ترعرع تيار في وسط الأمة يتبنى الصدام مع الآخر، ويمارس أشد ألوان العنف والإرهاب باسم الإسلام. وقد طالت هذه

الهجمات مختلف بلدان العالم، وسقط ضحاياها آلاف المدنيين الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. والكاتب لا يتناسى كون المسلمين قد عانوا في الماضي ويلات الاستعمار الأجنبي، وعنف الحملات الصليبية، وما زالوا يواجهون سياسات الهيمنة الأجنبية على بلدانهم، والدعم المفتوح لعدوهم الرئيس (إسرائيل) التي تحتل أرض فلسطين، وتمعن في إذلال الشعب الفلسطيني، وممارسة الغطرسة في المنطقة العربية والإسلامية بدعم غربي. لكنه يشير إلى أن ذلك لا ينبغي أن يكون مبرراً أبداً في ممارسة الإرهاب واستهداف الأبرياء، وافتعال معركة دينية وصدام حضاري، فالسياسات الدولية لا تنطلق من منطلق ديني، ولا ترفع شعارات أيديولوجية، وإنما تدفعها وتحركها المصالح والمطامع.

وفي الجانب الآخر يذكر بأن العلاقات داخل الأمة وبين مكوناتها الدينية ليست أقل تأزماً من العلاقة مع الخارج، بل هي أشد وأخطر، حيث انفجر الصراع الطائفي بين السنة والشيعة في أكثر من قطر إسلامي، وأدى ذلك إلى حروب ومعارك، وتهجير واغتيالات وتفجيرات انتحارية إرهابية، وإن الخطير في تأزم العلاقة مع الآخر الخارجي والداخلي، اتكاء هذه الحالة على تنظير ديني، حيث يروج التيار المتطرف لثقافة تقوم على المفاصلة والصدام مع الآخر.

الأمر الذي يؤكد الحاجة الماسة إلى ترسيم المبادئ ووضع القواعد التي تنظم العلاقة مع الآخر، والتعايش بين أبناء البشر وإن اختلفت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم. ولا بد من الرجوع إلى القرآن الكريم، لمعرفة الرؤية الدينية، والمنهج التشريعي للتعامل مع الآخر الديني. ويسعى الكاتب إلى استكشاف الرؤية القرآنية بلغة بيّنة واضحة، عسى أن تسهم في تحصين وعي جمهور الأمة من التأثر بثقافة التطرف والتشدد. ويلخص أهم العوامل والنقاط التي من خلالها يمكننا تجاوز حالة الصدام والصراع والتأزم في العلاقة مع الآخر، وبناء حالة من الوئام، وهي:

1/ الشراكة الإنسانية: ما يجب أن يستحضره المؤمن هو أن الآخر مهما كان دينه ومذهبه وعقيدته فهو شريك له في هذه الحياة، ولا بد من التعامل معه على هذا الأساس... ولا يحق لمن يدعي الإيمان بالله تعالى أن يصادر حق أحد من عباده ولو كان كافراً، لأنه بذلك يكون قد خالف إرادة الله، ومارس الظلم والجور. فالله تعالى يمكنه ألا يخلق من لا يؤمن به، أو أن يسلب نعمة الوجود من الكافرين والعصاة، أو يحرمهم من بعض قدرات الحياة وامتيازاتها، لكن حكمته تعالى شاءت أن تتسع الحياة للجميع، وأن يغمر فضله ونعمه الجميع.

2/ الاعتراف والإقرار بوجود الآخر: يجب أن نفرق بين مشروعية الوجود، وحقانية الوجود، فكل صاحب دين أو مذهب يرى الحقانية في عقيدته، وأن المعتقدات الأخرى باطلة. لكنه لا يملك حق إلغاء المعتقدات الأخرى، ومن حقهم أن يعبّروا عن ذاتهم الدينية والمذهبية. وقد حاول بعض من أتباع مختلف الديانات والمذاهب أن يصادروا الوجودات الدينية والمذهبية المخالفة لهم، لكن هذه المحاولات غالباً ما تبوء بالفشل، ولا تنتج إلا الحروب القذرة، والعنف المتبادل باسم الدين.

3/ حرية الرأي والمعتقد :غالباً ما يندفع الإنسان للتبشير برأيه وعقيدته بدافع وجداني، لأنه يؤمن بصحة رأيه، ويرغب أن يشاركه الآخرون الإيمان به، ويكسب المزيد من الثقة والاطمئنان برأيه حين تتسع رقعه المقتنعين به.وقد يكون دافعاً مصلحياً، حين يكون وسيلة لاستتباع الآخرين، وأخذ موقع التأثير عليهم، والقيادة لهم، بما يحقق أطماع الهيمنة والسيطرة. وقد يؤدي التبشير بالرأي والمعتقد إلى حالة من الصدام والصراع بين أتباع الديانات والمذاهب والأفكار، وخاصة حين يأخذ منحى الفرض والإكراه. وهنا يؤكد القرآن الكريم على احترام حرية الرأي والمعتقد، ويرفض أي محاولة لإكراه الآخرين على تبني معتقد أو قبول رأي ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. (سورة البقرة، الآية: 256)، ويقول تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس، الآية: 99).

4/ سيادة العدل وحفظ الحقوق: إن التمايز الديني والمذهبي لا يعطي لأحد الحق في الاستعلاء على الآخر، ومصادرة شيء من حقوقه الإنسانية، أو النيل من كرامته. فاعتقادك بأحقية دينك وبطلان دين الآخر، لا يمنحك مبرراً للتسلط عليه أو امتهان كرامته، ذلك أن الإنسان بما هو إنسان وقبل أي عنوان آخر ديني أو عرقي أو طبقي، له قيمته وكرامته التي يجب أن تحفظ وتحترم في هذه الحياة، أما في الآخرة فحسابه عند ربه.

ويؤكد الكاتب أنَّ هذه مبادئ أساسية يقررها القرآن الكريم لتوطيد السلم العالمي، ولتحقيق التعايش بين بني البشر، لكن المؤسف تجاهل هذه المبادئ في أوساط أبناء الأمة الإسلامية، بل سيادة توجهات على النقيض منها تحت عنوان الجهاد، أو الولاء و البراء، أو مواجهة أهل البدع. مبيناً حاجة الساحة الإسلامية إلى وجود خطاب ديني واعٍ يبين حقيقة هذه المفاهيم، ومصاديق تطبيقاتها التي يجب ألا تتنافى مع تلك المبادئ الأساسية التي يقررها القرآن الكريم كقواعد حاكمة على سائر التشريعات والأحكام.

لتعارفوا

يرجع الوجود البشري بمختلف أعراقه، وألوانه، ولغاته وثقافاته إلى أصل واحد، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم، وكما تؤكد النظريات العلمية، والخالق هو الله سبحانه وتعالى، والمكونات الأساس لأبناء البشر متساوية في أصل وجودها، وإن كانت متفاوتة في مستويات استخدامها وتفعيلها، وكذلك الحال في المكونات الفكرية، والروحية، والنفسية، لكن التفاوت يحصل في درجة استخدام هذه الأعضاء الجسمية، والقوى الفكرية، والنفسية، فهناك من يفعّل هذه القدرات المادية أو المعنوية أكثر من الآخرين. والمقومات الأساس

في شخصياتهم واحدة، لكن شاءت حكمة الباري وقدرته جل وعلا أن تتنوع الخصائص، وأن تتفاوت المستويات، فالخصائص بين أبناء البشر والمستويات متفاوتة، وهذا له أسبابه الطبيعية.

ويفسر نشأة التفاوت بين الناس عندما كان آدم يشكل العائلة الإنسانية الأولى، مع زوجته حواء وأولادهما، ومع استمرار التناسل البشري انتشر أبناء آدم في أنحاء مختلفة من الأرض، هذا الانتشار جعل كل مجموعة تعيش ضمن بيئة تختلف عن البيئة الأخرى، هذا الاختلاف البيئي، والجغرافي، في الحياة الطبيعية، انعكس اختلافاً مادياً وثقافياً، فكل جماعة من البشر تكونت لها لغة خاصة وتقاليد وأعراف من وحي ظروفها البيئية والمعيشية، فحصلت تنوعات وتفاوت بين الجماعات البشرية المتناثرة في أصقاع الأرض، وبمرور الوقت أصبحت البشرية تنقسم إلى قبائل وعشائر، وإلى شعوب وأمم، وهذا التنوع لا ينفي الأصل الواحد. لذلك تتوجه الآية الكريمة بالخطاب إلى أبناء البشر جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات، الآية: 13).

وفي هذا إيحاء لكل إنسان يريد أن يتصور: بأن كونه من هذه القبيلة، أو من هذه العائلة مدعاة للتميز، وأن كون الآخر من عائلة وقبيلة أخرى سبباً للدونية، ويخلص إلى أن مختلف القضايا المكتسبة يكون للإنسان رأي فيها، لكن الانتماء العائلي، والقبلي، والقومي، والعرقي، لا اختيار لك فيه، فلا فخر لك فيه، ولا يشكل نقطة ضعف لك، المسألة ترتبط بالله تعالى. وطبيعة الحياة اقتضت التنوع، وهذا الاختلاف ينعكس اختلافاً في الثقافات، وينبغي أن يكون دافعاً للتعارف.

أما قواعد التعارف وآفاقه فيذكر إن الإنسان القادر على المعرفة، ينبغي له أن يستفيد من التنوع البشري في كسب المعرفة، وعلينا أن نتأمل في كلمة ﴿لتعارفوا ﴾، لأن

التعارف قيمة كبيرة في حياة البشر، والتنوع فيه تجارب مختلفة، أول ما ينبغي أن تهتم به في حالة التنوع أن تتعرف إلى خصائص وصفات الطرف الآخر، هذا ما يجب أن تسعى إليه. وينبغي الابتعاد عن حالة الانطواء على الذات، القومية، أو الدينية، أو الفئوية، والاهتمام بالتأكيد على قيمة التعارف تلك القيمة الكبيرة التي يركزها القرآن الكريم.

وتحدث الفصل الثالث عن (ثقافة الرشد الاجتماعي)

وقد بيّن مستويات الرشد سواء على مستوى الأفراد، إذ نلحظ فرداً رشيداً يميز مصلحته ويحسن التصرف والتدبير، في مقابل فرد ضعيف الرأي، لا يتخذ الموقف المناسب فيما يواجهه من ظروف وأوضاع، أو الرشد على مستوى المجتمعات والجماعات، فهناك مجتمع راشد، ومجتمع يفتقد الرشد والنضج، فكيف نقوّم المجتمعات والجماعات على هذا الصعيد؟ وما هي سمات الرشد الاجتماعي؟

في القرآن الحكيم جاء الحديث عن المجتمع الراشد ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (سورة الحجرات، الآية: 7). والآية الكريمة تشير إلى أهم صفة في المجتمع الراشد، وهي الانسجام النفسي والفكري والسلوكي مع المبادئ والقوانين الشرعية.

فالمبدأ الذي يؤمن به المجتمع، تارة يكون مجرد هوية وعنوان، وتارة يؤخذ المبدأ على أساس التلقي من الأسلاف دون وعي واقتناع، وقد يتفاعل المجتمع مع المبدأ على المستوى الروحي النفسي، لكنه من الناحية العقلية الفكرية لديه تحفظات وإشكالات، وقد يحصل العكس بوجود اقتناع فكري نظري، دون توفر انشداد روحي نفسي، وقد يكون المبدأ أمراً مفروضاً على ذلك المجتمع لسبب أو لآخر، وكل تلك الحالات تنبئ عن ضعف وخلل في بنية المجتمع وكيانه، حين يؤمن بعقيدة موروثة دون اقتناع، أو يدين

بمبدأ لا يلتزم بتطبيق أنظمته وقوانينه في واقع حياته، أو يخضع لشريعة بالقوة والفرض. أما المجتمع الراشد الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فهو يتمتع بالصفات التالية:

1- حب العقيدة والمبدأ ﴿اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ بما تحمله كلمة الحب من معاني الانجذاب النفسي، والانشداد الروحي.

2- الوعي بالمبدأ ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي أدركتم بعقولكم صحة منهجكم الإيماني، وأنه الأفضل الذي تزدان به حياتكم.

3- الردع الذاتي عن المخالفة والانحراف ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ناتج عن الصفتين السابقتين، فإذا كان الإنسان محباً لمبدئه، من أعماق نفسه، وواعياً بدينه في فكره وعقله، فإنه بذاته يكره المعصية، وينفر من الخروج عن حدود النظام والقانون.

ويشير الكاتب إلى أهم سمات وصفات المجتمع الراشد:

1- الوعي والمعرفة: وهو وعي المجتمع ومعرفته بالأمور والشؤون التي ترتبط بواقعه، ليتمكن من تشخيص مصلحته، والتفريق بين ما ينفعه وما يضره كمجتمع. فالكثير من الناس يستغرقون في همومهم الذاتية، أو ينشغلون بمسائل ثانوية، ولا يلتفتون لقضايا مجتمعهم، ولا يعون الظروف والأوضاع التي تُحيط بأمتهم. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار دور الشهادة على العالم، الذي أناطه اللّه تعالى بالمؤمنين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة البقرة الآية143) فإن ذلك يعني ضرورة تطلع المجتمع الإيماني إلى أرفع مستوى من الوعي، يتمكن به من مراقبة التحولات العالمية، والمعادلات الدولية، فضلاً عن وعيه بأوضاعه وقضاياه، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل

من ثلاث: أن ينظر في شأنه، ويحفظ لسانه، ويعرف زمانه».

2- حسن التصرف: يقاس رشد المجتمع ونضجه بما يختار ويسلك من خيارات، فالانهزام أمام المشكلة، يكشف عن فقد الإرادة وضعف الثقة، بينما الوقوع تحت حالة العاطفة والانفعال، وغياب الحكمة والتعقل، قد يضاعف المشكل ويعمق الأزمة. وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرف، واتخاذ الموقف المناسب في الظرف المناسب، فقد يستلزم الظرف شدة وقوة، وقد يستدعي حماسة وانفعالاً، وقد يتطلب مرونة واستيعاباً.

3- الاستفادة من الإمكانات: ما يميز المجتمع الراشد عن غيره، هو الاهتمام باكتشاف الإمكانات، والعمل على استثمارها والاستفادة منها، وتوظيفها في مصلحة تقدم المجتمع. وضرورة أن لا تهمل مواردها الطبيعية، وتتجاهل كفاءات وقدرات أبنائها، إذ تسعى المجتمعات الواعية، لتنمية مواردها، والاستفادة من إمكاناتها الطبيعية والبشرية بأكبر قدر ممكن. ويشير الكاتب إلى تجربة بعض البلدان مثل: قبرص في مجال الاستفادة من الإمكانات الطبيعية، واليابان في مجال استثمار الموارد البشرية.

ويؤكد الكاتب على أهمية حرية الرأي ودوره في تقدم المجتمع لأن التقدم والتخلف في المجتمعات ليس عفوياً، أو يأتي بالصدفة، أو حسن وسوء الحظ، وإنما هناك وضع يعيشه المجتمع ينتج تخلفاً أو تقدماً. لذلك فبالإمكان التنبؤ بمستقبل أي مجتمع، من خلال دراسة ما يعيشه من عقليات وسلوكيات يتطبع بها أفراده، فإذا كانت هذه العقليات والسلوكيات منتجة للنهوض، فإن مجتمعها مرشح للتقدم، بينما لو كانت منتجة للجمود والتحجر، فإن المجتمع الخاضع لها سيعيش حالة من التخلف.

لذلك فإن الآية الكريمة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر: الآيتان 17 ـ 18)، تعبر

بـ(بشر) أي يا محمد انشر البشارة، ومن المعروف أن البشارة هي: الإخبار بما يسر وعلى العكس منها الإنذار الذي يعني التحذير من وقوع ما يضر. والآية تبشر الذين تتوفر فيهم الصفة التالية: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. فمن تتوقع منهم الصالح والتقدم هم من يتصفون بهذه الصفة، بينما الذين يتصفون بالصفة المعاكسة متوقع لهم التخلف والشر. والآية تتحدث عن صفات إذا انتشرت في مجتمع ما فيمكننا أن نتوقع له الخير.

ويشير الكاتب إلى العلاقة بين الإيمان وحرية التعبير، ويؤكد أن الآية السابقة تبشر المجتمع الذي يعيش حالة من حرية الرأي والتعبير، وتعده هو المجتمع الأقرب للهدى. وكذلك فإنه يستشهد بالتراث القديم عندما كان القدماء لم يكونوا يُقصون الرأي الآخر. سواء كان الرأي اللغوي، أو في تفسير القرآن الكريم، وكذلك الفقه وأصوله... ثم يتطرق إلى:

المجتمعات الإسلامية وأحادية الفكر

إن ما تعيشه مجتمعاتنا اليوم مخالف لما تطرحه الآية، فالله سبحانه وتعالى يطلب منّا أن نستمع لمختلف الآراء ونتبع أحسنها، ومن المفترض أن تكون هناك فرصة لطرح الآراء، وعلى الناس أن يستخدموا عقولهم لمحاكمة هذه الآراء، انطلاقاً من إمكانية الاعتماد على العقل وعدم تعطيله؛ لأنه الحجة الباطنة، فكما يحتج على الإنسان بالحجة الظاهرة وهم الرسل يحتج عليهم بالعقل. والمجتمعات التي تعيش أحادية الرأي والفكر لا يمكن أن تتقدم وتتغير سلوكياتها إلا بعاملين:

الأول: وجود جرأة في طرح الرأي.

الثاني: احترام الرأي من قبل المجتمع.

النقد الذاتي الاجتماعي

يُقسِم الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين بأمرين عظيمين: يقول تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة: الآيتان 2-1).

الأول: القَسم بيوم القيامة، ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، و (لا) ليست نافية للقسم، وإنما مؤكدة له.

ومعروف للجميع عظمة وأهمية يوم القيامة، إنه اليوم الذي يحشر فيه الناس ويحاسبون، ويتقرر مصيرهم الأبدي.

الثاني: القَسم بالنفس اللوامة، ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، واقتران الأمرين في القسم يشعر بأنهما على درجة متقاربة من العظمة والمكانة. ويذكر الكاتب مستويين من النقد، هما:

- على المستوى الفردي:

أولاً: النقد الذاتي يحمِّل الإنسان مسؤولية التغيير، والمواجهة مع الشهوات والأهواء.

ثانياً: النقد الذاتي يُشعر الإنسان أنه في موقف هزيمة وتراجع.

- على المستوى الاجتماعي:

غالباً ما يكون النقد الذاتي في المجتمعات أمراً صعباً، وخاصة في المجتمعات التي تغيب فيها حرية التعبير عن الرأي وحرية الفكر. وهنا يصبح المجتمع في حالة تنزيه لذاته، غافلاً عن الثغرات الداخلية، وغالباً ما تكون وسيلة التغطية على المشاكل الداخلية توجيه الأنظار إلى العدو الخارجي. فنجد أن بعض الأنظمة السياسية توجه الأنظار

للأعداء الخارجيين، وتحاول افتعال مشكلة خارجية، حتى تصرف أنظار الناس عن المشاكل الداخلية الموجودة. وعلى المستوى الثقافي والاجتماعي تجد أن الناس يتحركون باندفاع ضد مشكلة خارجية، لكنهم بصعوبة بالغة يتحركون ضد خطأ في الداخل. ويشير الكاتب إلى عدة أسباب تعترض حرية النقد:

أولاً: شعور يسود البعض بأن انتقاد بعض الأمور وإن كانت جانبية، يعرض مجمل البناء للهدم. ولكن كما يجب علينا أن نخاف من أن يكون هناك تفريط، فإن الحذر من الإفراط مطلوب، وكما نخاف من أن نقدَ غيرِ الصحيح قد يطال الصحيح، فإنه يجب علينا أن نخاف من أن السكوت على غير الصحيح قد يقودنا إلى خطأ آخر، وقد يعمق الأخطاء الموجودة.

ثانياً: القول بأن عملية النقد تظهر ضعفنا أمام الآخرين. وهذا الكلام مضى وقته، لأنه لم يعد هناك أمور مخفية. بل إن النقد الذاتي أصبح الآن مظهر قوة وليس مظهر ضعف، فالجهة التي تنتقد ذاتها، وتصحح أخطاءها، أقرب إلى الاحترام من الجهة التي تتستر على الأخطاء.

ثالثاً: وجود قوى منافسة في كل مجتمع تحمي الحالة السائدة، ففي المجتمع بعض الجهات تَعدُّ أن من مسؤوليتها حماية الحالة السائدة، فليس لديهم قضية يدافعون عنها أو يبرزون قوتهم فيها، فيكون الدفاع عن السائد هو ساحتهم وميدانهم لاستقطاب الآخرين إليهم، لذلك تجدهم يرفضون أي نقد، أو تصحيح، أو تطوير، وهذا يؤدي إلى أمرين:

الأول: أن نقاط الضعف تبقى في المجتمع، فتضعفه أمام الآخرين.

الثاني: حصول ردود فعل داخل المجتمع عند الشباب والناشئة، الذين ينفرون من

الأفكار والحالات غير المقنعة.

بالطبع لا يعني هذا أن أي نقد هو مصيب وصحيح، فقد يكون هناك خطأ أو اشتباه في تشخيص ما يستحق النقد، ولكن ما نصبو إليه هو ألا يكون النقد جريمة، وألا يكون الحديث عن الخطأ مرفوضاً. والمشكلة أن هذا الإرهاب الفكري يطال العلماء والمفكرين في المجتمع، فيقعد بهم عن إعلان موقفهم أو رأيهم، تجاه أي قضية أو ممارسة في المجتمع. وهذا وضعٌ خطير على مستوى المجتمعات والطوائف، وعلى مستوى الأمة الإسلامية بشكل عام.

يشير المؤلف إلى الآلام والآمال بين الأقوال والأعمال من خلال مسألة احتكاك الإنسان بهذه الحياة الذي ينتج رغبات وتطلعات، كما أن طبيعة الحياة فيها عوائق أمام ما يطمح إليه الإنسان ويرغب فيه. وهنا ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: (مجتمع الصمت) هو من يلتزم الصمت؛ يرغب في شيء ما، ولكن تبقى الرغبة حبيسة في نفسه، لا يظهرها لأحد.

القسم الثاني: (مجتمع الكلام) هو من يحترف الحديث والتعبير عما بداخله؛ يتحدث عن آلامه التي يعاني منها، وعن آماله التي يتطلع إليها، ويريد تحقيقها، يفصح عما بداخله في أي فرصة تتاح له.

القسم الثالث: (مجتمع الفعل) هو من يسعى ويجتهد لتحقيق تطلعاته، ولإزالة العوائق من طريقه، وهذا هو الأفضل؛ لا يُبقي الرغبة حبيسة في نفسه، ولا يكتفي بالتحدث عما بداخله، وإنما يجتهد لتحقيق تلك الرغبة، ويفكر كيف يحققها، ويخطط، ويكثف جهده العملي حتى يحقق ما يريد. ويرصد بعض الظواهر السلبية التي تبرز في مجتمعاتنا ومنها:

- الاستغراق في وصف المشكلة والفضفضة حولها.
- إلقاء المسؤوليات على الآخرين.

أما الفصل الأخير فتناول (العلاقات الاجتماعية)

وذلك من خلال بيانه أهمية تلك العلاقات بين الأفراد من أجل ترشيدها والارتقاء بها إلى مستوى النضج والرشد، وتجاوز تأثيرات النوازع الأنانية والتعصبية والانفعالية. ويؤكد أن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليس مسألة كمالية جانبية، بل هو عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهيَّأً للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفاً وانحطاطاً. لذلك، فإن أي حركة نهوض لا يمكنها أن تغفل شأن العلاقات الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق، ومحفز الإنتاجية والتقدم.

ويؤكد الكاتب الحاجة الماسة لمجتمعاتنا اليوم، وهي تتطلع للنهوض والتقدم، للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض، مع تطورات الحياة المعاصرة، لأن سلامة العلاقات الداخلية، تنعكس إيجاباً على مختلف جوانب المجتمع، فحركة المعرفة والفكر، تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح، وأخلاقيات الحوار، واحترام الرأي. والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون و تضافر القوى والقدرات. ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الآخرين حينما يكون أكثر تماسكاً وانسجاماً. والحالة النفسية لأبناء المجتمع، تكون أبعد عن الأزمات والعقد والأمراض، حين تصفو العلاقات، وتتقارب النفوس. وهكذا تكون سلامة العلاقات هي الطريق إلى مجتمع أفضل.

حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية

الأصل في الإنسان العاقل أن يبني أحكامه ومواقفه على العلم، كما يقول تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ حينما تريد أن تحكم على شخص معين أو أمر ما، فعليك التأكد والتثبت من صحة الأدلة والبراهين، القاضي مثلاً لا يصدر حكماً إلا إذا توفرت له الأدلة والبراهين التي يدعم بها حكمه. والعالم الفقيه لا يعطي فتواه إلا بعد مراجعة الأدلة التي يحتاجها لاستنباط الحكم الفقهي للمسألة. وهذا يعطينا منهجية واضحة، لما ينبغي أن يمارسه الإنسان المسلم في كل تفاصيل وجزئيات حياته، عندما يريد أن يحكم على شيء معين، فالأحكام ينبغي أن تبنى على أسس علمية. ويقسم الظنون السيئة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الظن بوقوع ما هو سيِّء بدون دليل وبرهان، بل بناء على احتمالات وأوهام، فيطلق حكماً على هذا أو ذاك من دون دليل قاطع.

القسم الثاني: إساءة الظن من مقصد فعل هو في حد ذاته ليس سيئاً، كأن أرى إنساناً يعمل عملاً حسناً إلا أنه قابل للتفسير بسوء المقصد، وبدون دليل أُسيءُ الظن في غايته.

القسم الثالث: إساءة الظن من مقصد فعل هو في حد ذاته سيئاً، لكنه يحتمل التبرير المسوغ، كأن ترى شخصاً يعمل عملاً ظاهره السوء، ولكن يحتمل أن يكون له مبرر شرعي.

ويؤكد حاجة مجتمعاتنا إلى الأخذ بحسن الظن، سواء على المستوى الفردي أو بين الجماعات، فنحن نواجه مشكلة في العلاقة بين الجماعات، كل جماعة تسيء تفسير تصرف الجماعة الأخرى، ولعل تصرفاً فردياً يصدر من أحد الأفراد فيحسب على الجماعة بأكملها،

وهذا غير صحيح، من أخطأ هو من يتحمل المسؤولية.

ويشير الكاتب إلى أهمية التودد إلى الناس، وضرورة الابتعاد عن اللمز والتنابز على مستوى الأفراد أو بين القبائل والجماعات؛ كونه من مساوئ الأخلاق. والابتعاد عن الغيبة باعتبارها من كبائر الذنوب، كما يتفق جميع المسلمين على حرمتها. ويذكر مجموعة من الآثار السيئة للغيبة.

وفي موضوع السخرية يتناول مسألة السخرية بين الجماعات، فالسخرية بين شخص وآخر أمر سيء، لكن الأسوأ منه أن تكون بين الجماعات، جماعة تسخر من جماعة، والحال هنا تكون أشنع وأفظع، لأن آثارها أشمل وأعم، لذا يركز القرآن على النهي عن هذه الحالة ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.وهي من الظواهر السلبية التي تتفشى في المجتمعات المتخلفة، حيث تعتقد بعض المجاميع أنها أفضل من المجموعات الأخرى، إما لنسب أو جاه أو مال، وهذا أمر يحاربه الإسلام. بعض الأحيان تكون السخرية على مستوى المناطق، فتجد من يسخر من أهل هذه المنطقة أو تلك، وهذه حالة سيئة موجودة في بعض المجتمعات.

وأحيانا تكون السخرية على أساس المستوى الاقتصادي. وفي بعض الأحيان تكون الانتماءات الاجتماعية وحتى الدينية سبباً للازدراء، وهذا من أسوأ أشكال السخرية. فتسمع كثيراً عبارات تدل على السخرية عندما يذكر شخص أنه ينتمي إلى المذهب الفلاني، أو الحزب الكذائي، أو تابع للمرجعية الفلانية، كأن القائل يرى نفسه ومن معه في الدرجة الأعلى وغيرهم في الدرك الأسفل. وقد أثبتت التجارب بأن الجماعات التي تنظر إلى نفسها نظرة نرجسية، ويرَوْن الآخرين أقل شأناً منهم، غالباً ما يكونون أقل فاعلية وعملاً ونشاطاً.

وفي موضوع التجسس وهتك أسرار الآخرين فإنه من أجل بناء علاقات اجتماعية

يكون أساسها الألفة والانسجام بين الناس، لا بد من بناء قاعدة أخلاقية صلبة، تحفظ الاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع، وتحمي حقوق الأفراد والجماعات من أي إساءة وعدوان.ومن الاستثناءات التي يذكرها الكاتب لحرمة التجسس:

1- تجسس الدولة على موظفيها في مجال عملهم...

2- التجسس على الأعداء...

3- التجسس على الأشرار ومن يسيئون لأمن الناس...

أما قضية الصراعات الداخلية في المجتمع التي تنشأ من أحد باعثين:

الأول: الاختلاف المصلحي، فحينما تتضارب المصالح يحصل الصراع، سواء كانت المصالح مادية، أو وجاهية، أو سياسية.

الثاني: الاختلاف في الآراء والتوجهات، إذ إن تعدد الآراء والانتماءات، قد يكون سبباً للصراع والنزاع في مجتمع المؤمنين، كما في سائر المجتمعات.

وفي هذه الحالة ينبغي مواجهتها من خلال ضوابط وحدود من أهمها:

أولاً: التأكيد على الالتزام بالأخلاق والحدود الشرعية.

ثانياً: أن يتحمل المجتمع مسؤوليته تجاه النزاع الذي يحصل في ساحته.

والله تعالى في الآيات الكريمة، يوجه أمراً لجميع المؤمنين بأن يتخذوا الموقف الصائب تجاه الصراع الذي يحصل في ساحتهم، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

فموقف التفرج على الصراع خطأ، وعلى المؤمنين تحمل المسؤولية، لا سيما تجاه

البغي والعدوان، وهذه مسألة مهمة، ففي النزاعات والصراعات غالباً ما يكون هناك تجاوز من فئة على أخرى، ومجتمع المؤمنين عليه مسؤوليتان:

المسؤولية الأولى: الدعوة إلى الصلح: ينبغي للمجتمع أن ينتج سعياً وجهداً لأداء واجب الإصلاح، وذلك يحتاج إلى إنتاج ثقافة واعية، تدفع باتجاه الإصلاح والوئام، ويحتاج إلى تضافر جهود المصلحين، أما ما يقوم به البعض من تذمر في المجالس بسبب حدوث بعض النزاعات في المجتمع، أو بين الشخصيات البارزة، فهذا لا يسهم في حل المشكلة إن لم يعقِّدها أكثر. فعلى كل شخص أن يطالب نفسه بدور تجاه ما يحصل في المجتمع من نزاع وصراع.

المسؤولية الثانية: إدانة البغي ومواجهة الاعتداء: حينما يكون هناك عدوان من فئة على أخرى، فأبناء المجتمع لا يصح لهم أن يكونوا محايدين، بل يجب أن يكون هناك موقف ضد الجهة المعتدية، يقول تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أما موقف الحياد فهو لا يصح، وذلك لأمرين:

الأول: موقف الحياد يعدُّ نوعاً من الخذلان للطرف المظلوم. وقد وردت نصوص عن لزوم إعانة المظلوم.

الثاني: حينما يسكت عن الظلم فإنه يتفشى وينتشر. لذلك يجب أن يكون هناك موقف تجاه الطرف المعتدي، فالاختلاف في الرأي مشروع، لكن الاعتداء ظلم ولا يصح السكوت عنه.

وفيما يتعلق بالاعتداءات المعنوية فليس هناك فرقٌ بين أن يكون العدوان مادياً أو معنوياً، فوجوب رفض العدوان يشمل الجانبين. فحينما يكون حديث على أي فئة أو شخصية في المجتمع، فعلى من يستمع إلى ذلك الحديث أن يشخص الموقف، فإذا كان

الحديث في إطار توضيح نقاط الاختلاف في الرأي، ووجهات النظر بين الأطراف، فهذا بحث ونقاش علمي، وصراع ثقافي مقبول، ولكن إذا كان في الحديث اعتداء وإسقاط للفئة الأخرى، أو تشكيك في دينها، أو اعتداء على أعراضها، فهنا لا يصح السكوت، وإنما ينبغي أن يكون هناك رفض واعتراض من قبل المؤمنين وموقف واضح تجاه أي اعتداء، بمختلف الوسائل والطرق: كاللسان والقلم، لأن الجهة المعتدية إذا رأت أن هناك رفضاً من المجتمع لممارساتها، فإن أقل نتيجة مرجوة هي وضع حد لمثل هذه الممارسات. ومن المؤسف أن بعض الجهات تلقى تشجيعاً من بعض الدائرين في فلكها، فتظن أن هذا يعبر عن رأي المجتمع، وقد يكون أكثرية المجتمع غير راضين، لكنها أكثرية صامتة، فعلى الأكثرية الصامتة أن تخرج من صمتها، لتدين وترفض البغي والعدوان على الأطراف الأخرى. وإذا لم ترفض فئة ما البغي والعدوان على الفئات الأخرى، فلتنتظر دورها من العدوان والبغي عليها، كما يحدث ذلك في أمثال هذه الحالات. فينبغي أن تؤسس حالة اجتماعية لإدانة ورفض البغي والعدوان، حتى تكون هناك حصانة للمجتمع ككل من الإصابة بهذه الآفة.

ولم يقف الكاتب عند مجرد تشخيص علل واقع الأمة الإسلامية من خلال إشارته الى مأزق الاحتراب، بل يؤكد وجوب الخروج من هذا الواقع؛ لأن ديننا الإسلامي يوجب أن نكون جميعاً دعاة أمن وسلم واستقرار. وهذا لن يتأتى ما لم تكن الأطراف المختلفة مستعدة لتقديم التنازلات المتبادلة، فإذا ما توفر هذا الاستعداد، ومن ثم التوجه نحو معالجة الجذور الباعثة على اندلاع المشاكل، فإن من الممكن تحقيق حالة الصلح والاستقرار في مجتمعاتنا. بخلاف ما إذا أصر كل طرف على إخضاع الطرف الآخر، فذلك ما يجعل من مهمة تحقيق الاستقرار مهمة عسيرة.

ويختم الكاتب الفصل الأخير من كتابه بالتأكيد على ضرورة قيام المنظمات المعنية بممارسة دورها لمواجهة تلك الأخطار، لا سيما منظمة التعاون الإسلامي من أجل إطفاء

الحرائق بين الدول الإسلامية، وبين الشعوب والحكومات، وبين الطوائف وأتباع المذاهب. وعلى هذا النحو ينبغي أن يتحرك علماء الدين والمفكرون والواعون. ولا شك أن المهمة ستكون شاقة نتيجة وقوع المصلحين دائماً بين المطرقة والسندان، فكل طرف يضغط عليهم بوسائله الخاصة، حتى يصطفوا معه ويكونوا إلى جانبه، لكن هذه المشقة والصعوبة لا تسقط الواجب عن عاتق الواعين الغيارى على مصالح الأمة ومستقبل شعوبها.

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: الرشد الاجتماعي.. رؤية قرآنية

اسم المؤلف: الشيخ حسن الصفار - رجل دين وخطيب وكاتب سعودي معاصر.

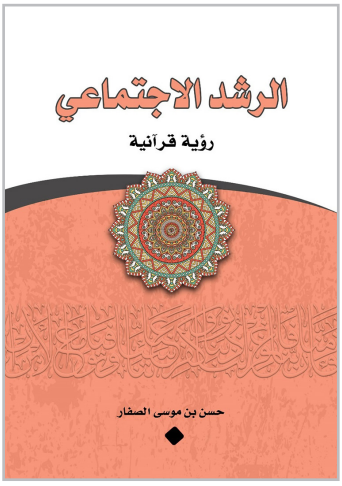

دار النشر: أطياف للنشر والتوزيع

الطبعة: الثانية

سنة النشر: 1441هـ - 2020م

مراجعة: د. عبد الخالق كاظم إبراهيم / باحث وحاصل على دكتوراه في اللغة العربية

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكوميّة، وغير ربحِيّة، أُسِّس سنة 2015م، وسُجِّل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

يحرص المركز للمساهمة في بناء الإنسان، بوصفه ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الأخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

ويسعى المركز أيضاً للمشاركة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسة التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص والنهوض به، بما يقلل من اعتماد المواطنين على مؤسسات الدولة.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org